ومعنى ﴿ الْعَزِيزُ .. ⦗٦⦘ ﴾ [السجدة] أى : الذى لا يُغلَب ولا يُقهر ، فلا يلويه أحد عن علمه ، ولا عن مراداته فى كَوْنه . ومع عِزَّته فهو سبحانه ( الرحيم ) .

﴿ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ⦗٧⦘ ﴾

الخَلْق إيجاد من عدم بحكمة ، ولغاية ومهمة مرسومة ، وليس عَبَثاً هكذا يخلق الأشياء كما اتفق ، فالخالق - عز وجل - قبل أنْ يخلق يعلم ما يخلق ، ويعلم المهمة التى سيؤديها ؛ لذلك يخلق سبحانه على مواصفات تحقق هذه الغاية ، وتؤدى هذه المهمة .

وقد يُخيَّل لك أن بعض المخلوقات لا مهمةَ لها فى الحياة ، أو أن بعضها كان من الممكن أنْ يُخلَق على هيئة أفضل مما هى عليها .

ونذكر هنا الرجل الذى تأمل فى كون الله فقال : ليس فى الإمكانِ أبدعُ مما كان . والولد الذى رأى الحداد يأخذ عيدان الحديد المستقيمة ، فيلويها ويُعْوجها ، فقال الولد لأبيه : لماذا لا يترك الحداد عيدان الحديد على استقامتها ؟ فعلَّمه الوالد أن هذه العيدان لا تؤدى مهمتها إلا باعوجاجها ، وتأمل مثلاً الخطَّاف وآلة جمع الثمار من على الأشجار ، إنها لو كانت مستقيمة لما أدَّتْ مهمتها .

وفى ضوء هذه المسألة نفهم الحديث النبوى الذى قال فيه النبى ﷺ - عن النساء : « إنهن خُلِقْنَ من ضلع ، وإن أعوج ما فى

الضلع أعلاه ، فإنْ ذهبتَ تقيمه كسرته ، وإنْ تركته لم يَزَلْ أعوج ، فاستوصوا بالنساء »[1] .

وحين تتأمل الضلوع في قفصك الصدرى تجد أنها لا تؤدى مهمتها فى حماية القلب والرئتين إلا بهذه الهيئة المعْوَجة التى تحنو على أهم عضوين فى جسمك ، فكأن هذا الاعوجاج رأفة وحُنُو وحماية ، وهكذا مهمة المرأة فى الحياة ، ألاَ تراها فى أثناء الحمل مثلاً تترفق بحملها وتحافظ عليه ، وتحميه حتى إذا وضعتْه كانت أشدَّ رفقاً ، وأكثر حناناً عليه ؟

إذن : هذا الوصف من رسول الله ليس سُبَّة فى حق النساء ، ولا إنقاصاً من شأنهن ؛ لأن هذا الاعوجاج فى طبيعة المرأة هو المتمم لمهمتها : لذلك نجد أن حنان المرأة أغلب من استواء عقلها ، ومهمة المرأة تقتضى هذه الطبيعة ، أما الرجل فعقله أغلب ليناسب مهمته فى الحياة ، حيث يُنَاط به العمل وترتيب الأمور فيما وُلِّى عليه .

إذن : خلق الله كلاً لمهمة ، وفى كل منَّا مهما كان فيه من نقص ظاهر - مَيْزة يمتاز بها ، فالرجل الذى تراه لا عقلَ له ولا ذكاءَ عنده تقول : ولماذا خلق الله مثل هذا ؟ لكن تراه قوىَّ البنية ، يحمل من الأثقال والمشاقّ ما لا تتحمله أنت ، والرجل القصير مثلاً ، ترى أنت عيبه فى قِصَر قامته ، لكن يراها غيرك ميزة من مزاياه ، وربما استدعاه للعمل عنده لهذه الصفة فيه .

وحين تتأمل مثلاً عملية التعليم ، وتقارن بين أعداد التلاميذ فى

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه ( ٣٣٣١ ) ، وكذا مسلم فى صحيحه ( ١٤٦٨ ) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه . قال النووى فى شرحه لمسلم : « يعنى أنها خُلقت من أعوج أجزاء الضلع ، فلا يتهيأ الانتفاع بها إلا بالصبر على تعوجها » .

المرحلة الابتدائية ، وكم منهم يصل إلى مرحلة التعليم العالى ؟ وكم منهم يتساقطون فى الطريق ؟ ولو أنهم جميعاً أخذوا شهادات عليا لما استقام الحال ، وإلاَّ فمَنْ للمهن المتواضعة والحرف وغيرها ؟ إذن : لا بُدَّ أنْ يوجد هذا التفاوت ؛ لأن العقل الواحد يحتاج إلى آلاف ينفذون خطته ، وقيمة كل امرىء ما يُحسنه مهما كان عمله .

لذلك قلنا : إنه لا ينبغى لأحد أنْ يتعالى على أحد ؛ لأنه يمتاز عنه فى شىء ما ، إنما ينظر فيما يمتاز به غيره ؛ لأن الخالق عز وجل وزّع المواهب بين الخَلْق جميعاً ، ويكفى أن تقرأ قول الحق سبحانه : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ .. (١١) ﴾ [الحجرات]

فالله تعالى : ﴿ الَّذِى أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُ .. (٧) ﴾ [السجدة] لأن لكل مخلوق مهمة مُهيَّأ لها ، وتعجب من تصاريف القدر فى هذه المسألة فتجد أخوين ، يعمل أحدهما فى العطور ، ويعمل الآخر فى الصرف الصحى ، وتجد هذا راضياً بعمله ، وهذا راضٍ بعمله .

حتى أنك تجد الناس الذين خلقهم الله على شىء من النقص أو الشذوذ حين يرضى الواحد منهم بقسمة الله له وقدره فيه يسود بهذا النقص ، أو بهذا الشذوذ ، وبعضنا لاحظ مثلاً الأكتع إذا ضرب شخصاً بهذه اليد الكتعاء ، كم هى قوية ! وكم يخافه الناس لأجل قوته ! وربما يجيد من الأعمال ما لا يجيده الشخص السَّوى .

فإنْ قلتَ : إذا كان الخالق سبحانه أحسن كل شىء خلقه ، فما بال الكفر ، خلقه الله وما يزال موجوداً ، فأىُّ إحسان فيه ؟

نقول : والله لولا طغيان الكافرين ما عشق الناسُ الإيمانَ ، كما أنه لولا وجود الظلم والظالمين لما شعر الناس بطَعْم العدل . إذن :

فالحق سبحانه يخلق الشيء ، ويخلق من ضده دافعاً له .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِن طِينٍ (٧) ﴾ [السجدة] فالإنسان الذى كرَّمه الله على سائر المخلوقات بدأه الله من الطين ، وهو أدنى أجناس الوجود ، وقلنا : إن جميع الأجناس تنتهى إلى خدمة الإنسان : الحيوان وهو أقربها للإنسان ، ثم النبات ، ثم الجماد ، ومن الجماد خُلق الإنسان .

وقد عوَّض الله عز وجل الجماد الخادم لباقى الأجناس حين أمر الإنسان المكرَّم بأنْ يُقبِّله فى فريضة كُتبت عليه مرة واحدة فى العمر ، وهى فريضة الحج ، فأمره بأن يُقبِّل الحجر الأسود ، وأنْ يتعبد لله تعالى بهذا التقبيل ؛ لذلك يتزاحم الناس على الحجر ، ويتقاتلون عليه ، وهو حجر ، وهم بشر كرَّمهم الله ، وما ذلك إلا ليكسر التعالى فى النفس الإنسانية ، فلا يتعالى أحد على أحد .

وسبق أنْ بيَّنا أن المغرضين الذين يحبون أنْ يستدركوا على كلام الله قالوا : إن الله تعالى قال فى مسألة الخَلْق مرة ﴿ مِّن مَّاءٍ .. (٢٠) ﴾ [المرسلات] ومرة ﴿ مِن تُرَابٍ .. (٣٧) ﴾ [الكهف] ومرة ﴿ مِّن طِينٍ (١٢) ﴾ [المؤمنون] ومرة ﴿ مِن صَلْصَالٍ .. (٣٣) ﴾ [الحجر] ومرة ﴿ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ (٢٦) ﴾ [الحجر] .. الخ ، فأىُّ هذه العناصر أصل للإنسان ؟

وقلنا : إن هذه مراحل مختلفة للشىء الواحد ، والمراحل لا تقتضى النية الأولية ، فالماء والتراب يُكوِّنان الطين ، فإذا تُرك الطين حتى تتغير رائحته فهو الحمأ المسنون ، فإذا تُرك حتى يجفَّ ويتجمد فهو الصلصال ، فهذه العناصر لا تعارضَ بينها ، ويجوز لك أنْ تقول : إن الإنسان خُلق من ماء ، أو من تراب ، أو من طين ... الخ .

والمراد هنا الإنسان الأول ، وهو سيدنا آدم ـ عليه السلام ـ ثم

أخذ الله سلالته من ماء مهين ، والسلالة هى خلاصة الشيء ، فالخالق سبحانه خلقنا أولاً من الطين ، ثم جعل لنا الأزواج والتناسل الذى نتج عنه رجال ونساء .

ثم يحتفظ الخالق سبحانه لنفسه بطلاقة القدرة فى هذه المسألة ، وكأنه يقول لك : إياك أنْ تفهم أننى لا أخلق إلا بالزوجية ، إنما أنا أستطيع أنْ أخلق بلا زوجية كما خلقْتُ آدم ، وأخلق من رجل بلا امرأة كما خلقتُ حواء ، وأخلق من امرأة بلا رجل كما خلقتُ عيسى عليه السلام .

وقد تتوفر علاقة الزوجية ويجعلها الله عقيماً لا ثمرةَ لها ، وهكذا تناولت طلاقة القدرة كل ألوان القسمة العقلية فى هذه المسألة ، واقرأ إنْ شئتَ : ﴿ **لِّلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ** (٤٩) **أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ** (٥٠) ﴾ [الشورى]

إذن : هذه مسألة طلاقة قدرة للخالق سبحانه ، وليست عملية (ميكانيكية) ، لأنها هبَة من الله ﴿ **يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا** .. (٤٩) ﴾ [الشورى] ولاحظ أن الله قدَّم هنا الإناث ، وهم الجنس الذى لا يفضِّله الناس أن يُولد لهم ، ولكن تجد الذى يرزقه الله بالبنت فيفرح بها ، ويعلم أنها هِبَة من الله يُعوِّضه الله بزوج لها يكون أطوعَ له من ولده .

كما أنه لو رضى صاحب العُقْم بعُقْمه ، وعلم أنه هِبَة من الله لَعوَّضه الله فى أبناء الآخرين ، وشعر أنهم جميعاً أبناؤه ، ولماذا نقبل هبة الله فى الذكور وفى الإناث ، ولا نقبل العقم ، وهو أيضاً هبة الله ؟

ثم ألستَ ترى من الأولاد مَنْ يقتل أباه ، ومَنْ يقتل أمه ؟ إذن :

المسألة تحتاج منّا إلى الرضا والتسليم والإيمان بأن العُقْم هبة ، كما أن الإنجاب هبة .

ثم إن خَلْق الإنسان الأول وهو آدم عليه السلام من طين جاء من البداية على صورته التامة الكاملة ، فخلقه الله رجلاً مستوياً ، فلم يكُنْ مثلاً طفلاً ثم كبر وجرتْ عليه سنة التطور ، لا إنما خلقه الله على صورته ، أي : على صورة آدم .

والبعض يقول : خلق الله آدم على صورته أي على صورة الحق[1] ، فالضمير يعود إلى الله تعالى ، والمراد : على صورة الحق لا على حقيقة الحق ، فالله تعالى حيٌّ يَهَب من حياته حياة ، والله قوى يهَبُ من قوته قوة ، والله غنيٌّ يهب من غنَاه غِنى ، والله عليم يَهَبُ من علمه علماً .

لذلك قيل : « تخلَّقوا بأخلاق الله » ؛ لأنه سبحانه وهبكم صفات من صفات تجلِّيه ، وقد وهبكم هذه الصفات ، فاجعلوا للصفة فيكم مزية وتخلَّقوا بها ، فمثلاً كُنْ قوياً على الظالم ، ضعيفاً متواضعاً للمظلوم ، على حَدِّ قول الله تعالى في صفات المؤمنين :

﴿ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ .. (٢٩) ﴾ [الفتح]

وقال : ﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ .. (٥٤) ﴾ [المائدة]

وهذه الصفات المتناقضة تجتمع في المؤمن ؛ لأنه ليس له طبع واحد ، إنما الموقف والتكليف هو الذى يصبغه ويلويه إلى الصفة المناسبة .

---

(١) عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : « خلق الله آدم على صورته ، طوله ستون ذراعاً » أخرجه البخارى فى صحيحه ( ٦٢٢٧ ) ، وكذا مسلم فى صحيحه ( ٢٨٤١ ) أى : خلقه على صورته التى استمر عليها إلى أن أُهْبِطَ وإلى أن مات ، دفعاً لتوهم من يظن أنه لما كان فى الجنة كان على صفة أخرى ( نقله ابن حجر فى فتح البارى ٣/١١ ) .

وقلنا : إن علماء التحاليل فى معاملهم أثبتوا صدْق القرآن فى هذه الحقيقة ، وهى خَلْق الإنسان من طين حينما وجدوا أن العناصر المكوِّنة لجسم الإنسان هى ذاتها العناصر الموجودة فى التربة ، وعددها ١٦ عنصراً ، أقواها الأكسوجين ، ثم الكربون ، ثم الهيدروجين ، ثم النيتروجين ، ثم الصوديوم ، ثم الماغنسيوم ، ثم البوتاسيوم .. الخ .

﴿ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ﴾

النسل هو الأنجال والذرية . والسلالة : خلاصة الشىء تُسلُّ منه كما يُسلُّ السيف من غمده ، فالسلالة هى أجود ما فى الشىء ، ولذلك نقول : فلان من سلالة كذا ، وفلان سليل المجد . يعنى : فى مقام المدح . حتى فى الخيل يحتفظون لها بسلالات معروفة أصيلة ويُسجلون لها شهادات ميلاد تثبت أصالة سلالتها .

هذا النسل وهذه السلالة خلقها الله من ماء ، وهو منىُّ الرجل وبويضة المرأة .

هذا الماء وصفه الله بأنه ﴿ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ﴾ [السجدة] لأنه يجرى فى مجرى البول ، ويذهب مذهبه إذا لم يصل إلى الرحم ، وفى هذا الماء المهين عجائب ، ويرحم الله العقاد[1] حين قال : إن أصول ذرات العالم

---

(١) هو : عباس محمود إبراهيم العقاد ، أصله من دمياط بمصر ، انتقل أسلافه إلى المحلة الكبرى ، وكان أحدهم يعمل فى « عقادة الحرير » فعرف بالعقاد ولد بأسوان عام ١٨٨٩ من أم كردية ، تعلم فى مدرستها الابتدائية ، وكان موظفاً بالسكة الحديد وبوزارة الأوقاف بالقاهرة ثم معلماً فى بعض المدارس الأهلية وانقطع إلى الكتابة فى الصحف والتأليف ، ظل اسمه لامعاً مدة نصف قرن ألف خلالها ٨٣ كتاباً أشهرها العبقريات . توفى بالقاهرة عام ١٩٦٤ عن ٧٥ عاماً [ الأعلام ٣/٢٦٦ ] .

كله يمكن أن تُوضع فى نصف كستبان الخياطة ، وتأمل كم يقذف الرجل فى المرة الواحدة من هذا المقدار ؟ إذن : المسألة دقة تكوين وعظمة خالق ، ففى هذه الذرة البسيطة خصائص إنسان كامل ، فهى تحمل : لونه ، وجنسه ، وصفاته .. الخ .

وسبق أن قلنا فى عالم الذر : إن فى كل منا ذرة وجزيئاً حياً من لَدُنْ أبيه آدم عليه السلام .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ(١) وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾ ﴾

وهذه التسوية كانت أولاً للإنسان الأول الذى خلقه الله من الطين ، كما قال سبحانه : ﴿ **فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ** ﴿٢٩﴾ ﴾ [الحجر] وقد مرَّ آدم ـ عليه السلام ـ فى هذه التسوية بالمراحل التى ذكرت ، كذلك الأمر فى سلالته يُسوِّيها الخالق ـ عز وجل ـ وتمر بمثل هذه المراحل : من نطفة ، ثم من علقة ، ثم من مضغة .. الخ ، ثم تُنفخ فيه الروح .

وإذا كان الإنسان لم يشهد كيفية خَلْقه ، فإن الله تعالى يجعل من المشَاهَد لنا دليلاً على ما غاب عنَّا ، فإنْ كنَّا لم نشهد الخَلْق فقد شاهدنا الموت ، والموت نَقْضٌ للحياة وللخَلْق ، ومعلوم أن نَقْض

(١) قال الشيخ أبو يحى زكريا الأنصارى فى كتابه « فتح الرحمن بكشف ما يلتبس فى القرآن » ( ص ٣٢٤ ) : « المراد بـ ( روحه ) جبريل ، وإلا فالله منزه عن الروح الذى يقوم به الجسد وتكون به الحياة ، وأضافه إلى نفسه تشريفاً وإشعاراً بأنه خَلْق عجيب مناسب للمقام » .

الشيء يأتي على عكس بنائه ، فإذا أردنا مثلاً هدم عمارة من عدة أدوار فإن آخر الأدوار بناءً هو أول الأدوار هدماً .

كذلك الحال فى الموت ، أول شيء فيه خروج الروح ، وهى آخر شيء فى الخَلْق ، فإذا خرجت الروح تصلَّب الجسد ، أو كما يقولون ( شضّب ) ، وهذه المرحلة أشبه بمرحلة الصلصالية ، ثم يُنتن وتتغير رائحته ، كما كان فى مرحلة الحمأ[1] المسنون ، ثم يتحلل هذا الجسد ويتبخر ما فيه من مائية ، وتبقى بعض العناصر التى تتحول إلى تراب ليعود إلى أصله الأول .

إذن : خُذْ من رؤيتك للموت دليلاً على صِدْق ربك ـ عز وجل ـ فيما أخبرك به من أمر الخَلْق الذى لم تشهده .

وقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ .. ⁽٩⁾ ﴾ [السجدة] سبق أن تكلمنا عن هذه الأعضاء ، وقد قرر علماء وظائف الأعضاء مهمة كل عضو وجارحة ، ومتى تبدأ هذه الجارحة فى أداء مهمتها ، وأثبتوا أن الأذن هى الجارحة الأولى التى تؤدى مهمتها فى الطفل ، بدليل أنك إذا وضعتَ أصبعك أمام عين الطفل بعد ولادته لا ( يرمش ) ، فى حين يفزع إنْ أحدثتَ بجواره صوتاً ؛ ذلك لأنه يسمع بعد ولادته مباشرة ، أما الرؤية فتتأخر من ثلاثة إلى عشرة أيام .

لذلك كانت حاسة السمع هى المصاحبة للإنسان ، ولا تنتهى مهمتها حتى فى النوم ، وبها يتم الاستدعاء ، أما العين فلا تعمل أثناء النوم .

---

(١) الحمأ : الطين الأسود ، ومسنون أى : مصبوب فى قالب إنسانى ، أو مصوَّر بصورة إنسان أو طين كالفخار صالح للتصوير والصقل . [ القاموس القويم ١/ ٣٣١ ] .

وهذه المسألة أوضحها الحق سبحانه فى قصة أهل الكهف ، فلما أراد الحق سبحانه أنْ يُنيم أهل الكهف هذه المدة الطويلة ، والكهف فى صحراء بها أصوات الرياح والعواصف والحيوانات المتوحشة ؛ لذلك ضرب الله على آذانهم وعطَّل عندهم هذه الحاسة كما قال سبحانه : ﴿ فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا (١١) ﴾ [الكهف]

إذن : الأذن هى أول الأعضاء أداءً لمهمتها ، ثم العين ، ثم باقى الأعضاء ، وآخرها عملاً الأعصاب ، بدليل أن الطفل تصل حرارته مثلاً إلى الأربعين درجة ، ونراه يجرى ويلعب دون أن يشعر بشىء ، لماذا ؟ لأن جهازه العصبى لم ينضج بَعْد ، فلا يشعر بهذه الحرارة .

لذلك نجد دائماً القرآن يُقدِّم السمع على البصر ، ويتقدم البصرَ إلا فى آية واحدة هى قوله تعالى : ﴿ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا .. (١٢) ﴾ [السجدة] لأنها تصور مشهداً من مشاهد القيامة ، وفيه يفاجأ الكفار بأهوال القيامة ، ويأخذهم المنظر قبل أنْ يسمعوا الصوت حين ينادى المنادى .

ومن عجائب الأداء البيانى فى القرآن أن كلمة أسماع يقابلها أبصار ، لكن المذكور هنا ﴿ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ .. (٩) ﴾ [السجدة] فالسمع مفرد ، والأبصار جمع ، فلماذا أفرد السمع وجمع البصر ؟

قالوا : لأن الأذن ليس لها غطاء يحجب عنها الأصوات ، كما أن للعين غطاءً يُسْدَل عليها ويمنع عنها المرئيات ، فإذن فهو سمع واحد لى ولك وللجميع ، الكل يسمع صوتاً واحداً ، أما المرئيات فمتعددة ، فما تراه أنت قد لا أُراه أنا .

ولم يأت البصر مفرداً - في هذا السياق - إلا في موضع واحد هو قوله تعالى : ﴿ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً (٣٦) ﴾ [الإسراء] ذلك لأن الآية تتكلم عن المسئولية ، والمسئولية واحدة ذاتية لا تتعدى ، فلا بُدَّ أنْ يكون واحداً .

ومن المناسب أن يذكر الحق سبحانه السمع والأبصار والأفئدة بعد الحديث عن مسألة الخَلْق ؛ لأن الإنسان يُولَد من بطن أمه لا يعلم شيئاً ، وبهذه الأعضاء والحواس يتعلَّم ويكتسب المعلومات والخبرات كما قال سبحانه : ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٨) ﴾ [النحل]

إذن : فهذه الأعضاء ضرورية لوجود الإنسان الخليفة فى الأرض ، وبها يتعايش مع غيره ، ولا بُدَّ له من اكتساب المعلومات ، وإلاَّ فكيف سيتعايش مع بيئته ؟

وقلنا : إن الإنسان لكى يتعلم لا بُدَّ له من استعمال هذه الحواس المدركة ، كل منها فى مناطه ، فاللسان فى الكلام ، والعين فى الرؤية ، والأذن فى السمع ، والأنف فى الشم ، والأنامل فى اللمس .

وقلنا : إن هذه الحواس هى أمهات الحواس المعروفة ، حيث عرفنا فيما بعد حواسَّ أخرى ؛ لذلك احتاط العلماء لهذا التطور ، فأطلقوا على هذه الحواس المعروفة اسم « الحواس الظاهرة » ، وبعد ذلك عرفنا حاسة البَيْن التى نعرف بها رقَّة القماش وسُمْكه ، وحاسة العضل التى نعرف بها الثقل .

إذن : حينما يُولَد الإنسان يحتاج إلى هذه الحواس ليتعايش بها ويدرك ويتفاعل مع المجتمع الذى يعيش فيه ، ولو أن الإنسان يعيش وحده ما احتاج مثلاً لأنْ يتكلم ، لكنه يعيش بطبيعته مع الجماعة ،

فـلا بُدَّ له أن يتكلم ليـتفـاهم مـعهم ، وقـبل ذلك لا بُدَّ له أنْ يسـمع ليتعلم الكلام .

وعرفنا سابقاً أن اللغة وليدة السماع ، فالطفل الذى يُولَد فى بيئة عربية ينطق بالعربية ، والذى يعيش فى بيئة إنجليزية ينطق الإنجليزية وهكذا ، فـمـا تسمـعـه الأذن يحكيـه اللسان ، فـإذا لم تسـمع الأذن لا ينطق اللسان .

لذلك سبق أن قلنا فى سـورة البقرة فى قـول الله تعالى : ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ .. (١٨) ﴾ [البقرة] أن البكَم وهو عدم الكلام نتيجة الصمم ، وهو عدم السماع ، فالسمع - إذن - هو أول مهمة فى الإنسان ، وهو الذى يعطينى الأرضية الأولى فى حياتى مع المجتمع من حولى .

ومعلوم أن تعلُّم القراءة مثلاً يحـتاج إلى معلم أسمع منه النطق ، فهذه ألف ، وهذه باء ، هذه فتحة ، وهذه ضمة .. الخ ، فإذا لم أسمع لا أستطيع النطق الصحيح ، ولا أستطيع الكتابة .

وبالسمـاع يتم البلاغ عن الله من السمـاء إلى الأرض ؛ لذلك تقدَّم ذكرُ السمع على ذِكْر البصر .

والحق سـبـحانه لـما تكلَّـم عن السمـع بهذه الصـورة قـال : أنا سـأُسْمِع أسـماء الأشـياء ، فـهـذه أرض ، وهذه سمـاء .. الخ ؛ لذلك حينما نُعلِّم التلميذ نقول له : هذه عين ، وهذه أذن .

وبعد أنْ يتعلم التلميذ من مُعلِّمه القراءة يستطيع بعد ذلك أنْ يقرأ بذاته ، فيحتـاج إلى حاسّة البصر فى مهمة القـراءة ، فإذا أتم تعليمه واستطاع أن يصحح قـراءته بنفسه ، واختمـرت عنده المعلومات التى اكتسبها بسمعه وبصـره استطاع أنْ يقرأ أشياء أخرى غير التى قرأها

له معلمه ، واستطاع أن يربى نفسه ويُعلِّمها حتى تتكون عنده خلية علمية يستحدث من خلالها أشياء جديدة ، ربما لا يعرفها معلمه ، وهذه مهمة الفؤاد ﴿ وجعل لكُمُ السَّمْعَ والأَبْصَارَ والأَفْئدَةَ . . (٩) ﴾[السجدة]

فالمعانى تتجمع بهذه الحواس ، حتى يصير الإنسان سَوياً لديه الملَكة التى يتعلم بها ، ثم يُعلِّم هو غيره .

واللغة المنطوقة لا تُتعلَّم إلا بالسماع ، فأنا سمعت من أبى ، وأبى سمع من أبيه ، وتستطيع أنْ تسلسل هذه المسألة لتصل إلى آدم عليه السلام أبى البشر جميعاً ، فإنْ قلتَ : فممَّنْ سمع آدم ؟ نقول : سمع الله حينما علَّمه الأسماء كلها : ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا[1] ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَـٰؤُلاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٣١) ﴾ [البقرة]

وهذا أمر منطقى ؛ لأن اللغة المسموعة بالأذن لا يمكن لأحد اختراعها ، ومع ذلك يوجد مَنْ يعترض على هذه المسألة ، يقول : هذا يعنى أن اللغة توقيفية ، لا دخْلَ لنا فيها . بمعنى : أننا لا نستحدث فيها جديداً .

ونقول : نعم ، اللغة أمر توقيفى ، لكن أعطى اللهُ آدم الأسماء وعلَّمه إياها ، وبهذه الأسماء يستطيع أنْ يتفاهم على وضع غيرها من الأسماء فى المعلومات التى تستجد فى حياته .

---

(١) عن ابن عباس قال : علم الله آدم الأسماء كلها ، وهى هذه الأسماء التى يتعارف بها الناس : إنسان ، ودابة ، وأرض ، وبحر ، وسهل ، وجبل ، وحمار ، وأشباه ذلك من الأمم وغيرها . [ أورده السيوطى فى الدر المنثور ١/١٢١ وعزاه لابن جرير الطبرى ] .

قال ابن كثير فى تفسيره ( ١/٧٣ ) : « علَّمه أسماء الأشياء كلها ذواتها وصفاتها وأفعالها كما قال ابن عباس : حتى الفسوة والفسية . يعنى : أدوات الأسماء والأفعال المكبَّر والمصغر » .

وإلا ، فكيف سمَّيْنا ( الراديو والتليفزيون .. الخ ) وهذه كلها مُستجدات لا بُدَّ لها من أسماء ، والاسم لا يوجد إلا بعد أنْ يوجد مُسمَّاه ، وهذه مهمة المجامع اللغوية التى تقرر هذه الأسماء ، وتوافق على استخدامها ، وقد اصطلح المَجْمع على تسمية الهاتف : مسرة . والتليفزيون : تلفاز .. الخ .

إذن : أتينا بهذه الألفاظ واتفقنا عليها ؛ لأنها تعبر عن المعانى التى نريدها ، وهذه الألفاظ وليدة الأسماء التى تعلمها آدم عليه السلام ، فاللغة بدأت توقيفية ، وانتهت وضعية .

وقوله تعالى بعد هذه النعم : ﴿ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ ۝ ﴾ [السجدة] دليل على أن هذه النعم تستوجب الشكر ، لكن قليل منَّا مَنْ يشكر ، وكان ينبغى أن نشكر المنعم كلما سمعنا ، وكلما أبصرنا ، وكلما عملتْ عقولنا وتوصلتْ إلى جديد .

لذلك ، كان شكر المؤمن لربه لا ينتهى ، كما أن أعياده وفرحته لا تنتهى ، فنحن مثلاً نفرح يوم عيد الفطر بفطرنا وبأدائنا للعبادة التى فرضها الله علينا ، وفى عيد الأضحى نفرح ؛ لأن سيدنا إبراهيم - عليه السلام - تحمَّل عنَّا الفداء بولده ، لكى يعفينا جميعاً من أنْ يفدى كل منَّا ، ويتقرب إلى الله بذبح ولده ، وإلا لكانت المسألة شاقة علينا ؛ لذلك نفرح فى عيد الأضحى ، ونذبح الأضاحى ، ونؤدى النُّسُك فى الحج .

وما دام المؤمن ينبغى له أن يفرح بأداء الفرائض وعمل الطاعات ، فلماذا لا نفرح كلما صلَّينا أو صُمْنا أو زكَّيْنا ؟ لماذا لا نفرح عندما نطيع الله بعمل المأمورات ، وترْك المنهيات ؟ لماذا لا نفرح فى الدنيا حتى يأتى يوم الفرح الأكبر ، يوم تتجمع حصيلة هذه الأعمال ، وننال ثوابها الجنة ونعيمها ؟

واقرأ إن شئت قول ربك : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٩) دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠) ﴾ [يونس]

﴿ وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ ۚ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ (١٠) ﴾

معنى ﴿ ضَلَلْنَا فِي الأَرْضِ .. (١٠) ﴾ [السجدة] أي : غبنا فيها ، واندثرتْ ذراتنا ، بحيث لا نعرف أين ذهبت ، وإلى أيِّ شيء انتقلت ، إلى حيوان أم إلى نبات ؟ إذا حدث هذا ﴿ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ .. (١٠) ﴾ [السجدة] يعني : أيخلقنا الله من جديد مرة أخرى ؟

والحق سبحانه يرد عليهم : ﴿ بَلْ هُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ (١٠) ﴾ [السجدة] بل تفيد الإضراب عن كلامهم السابق ، وتقرير حقيقة أخرى ، هي أنهم لا ينكرون البعث والحشر ، إنما ينكرون لقاء الله ﴿ بَلْ هُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ (١٠) ﴾ [السجدة] لأن مسألة الحشر مستحيل أنْ ينكروها ؛ لأن الدليل عليها واضح .

كما قال سبحانه : ﴿ أَفَعَيِينَا[1] بِالْخَلْقِ الأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ (١٥) ﴾ [ق] والذي خلق من العدم أولاً قادر على الإعادة من موجود ؛ لأن ذراتك وخاماتك موجودة ، فالإعادة أسهل من البَدْء ؛

(١) عيَّ عن الأمر يعيا : عجز عن النهوض به . فقوله ﴿ أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الأَوَّلِ .. (١٥) ﴾ [ق] أي : لم نعجز ولم نَعْيَ بالخلق الأول ، وكذلك لن نعجز عن الخلق الثاني يوم القيامة ، وهو برهان على إمكان البعث بعد الموت ، فإن من قدر على الخلق أول مرة يكون قادراً من باب أوْلَى على الخلق مرة ثانية . [ القاموس القويم ٢/٤٦ ] .